تأملات في سورة

محمد ﷺ

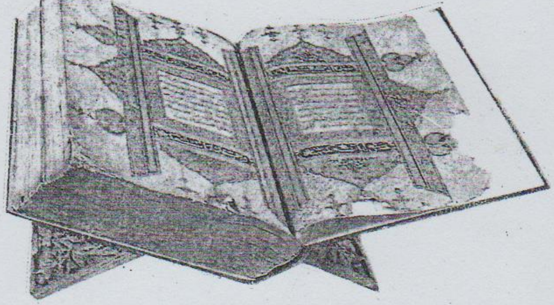

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى - بمكة المكرمة

(تأمّلات في سورة محمّد ﷺ)

تأملات
في
سورة

محمد ﷺ

الدّكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
بجامعة أمّ القرى
بمكّة المكرّمة

الطّبعة الثّانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

هذه الدراسة المتأملة لسورة محمد عليه الصلاة والسلام المدنية وعنوانها «تأملات في سورة محمد عليه الصلاة والسلام» استهدفت تبيين مظاهر إعجاز القرآن الكريم في عرضه للمعاني، وخصائص هذه السورة الكريمة أسلوبياً بحيث يبدو تناسق الشكل مع المضمون بدرجة عجيبة لا توجد في غير القرآن الكريم. لذا كانت هذه السورة الكريمة، هي ومثيلاتها من أمثال سورة الأنفال والصف والتوبة والنساء وآل عمران بمثابة النشيد الحربي الذي يردده المجاهدون في سبيل الله تعالى. والمعروف أن جرس هذه السورة الكريمة ونغمة الفاصلة العالية الميمية بمثابة تلك الطلقات المتتابعة للمدافع الثقيلة المزمجرة. فإذا خف دوي الفاصلة، لتحولها مرتين فقط خارجياً ومرتين فقط داخلياً، هاء ممدودة، لاحت الفاصلة وكأنها السلاح الأبيض البراق الذي يلوّح به في المعركة إيحاء بالموت الزؤام وتعدد أسبابه وتنوّع أشكاله، دون أن يختفي دوي المدافع الثقيلة، لأن حرف الميم ذا الصوت المدمدم في السورة، لا يختفي مرة واحدة من المرات، في أثناء كل آيات السورة الكريمة وبلا استثناء، ولأن الصيغة الصوتية لطلقات مدافع الآيات الكريمات لا تكاد تغيب لحظة من اللحظات. كما استهدفت هذه

الدراسة تبيين الدروس القرآنية التي يمكن أن تستفاد من هذه السورة المدنية الكريمة.

وحينما نتبين أن لهذه السورة الكريمة من الأسماء، محمداً عليه الصّلاة والسلام، القتال، الذين كفروا، نستطيع أن نفهم بداهة أهم درس تريد السورة الكريمة لنا نحن المسلمين أن نحذقه ونترجمه دائماً وأبداً إلى عمل. وهذا الدرس هو الجهاد في سبيل الله تعالى. وقد قال المصطفى ﷺ: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» . والمعروف أن دينَ الإسلام الذي رضي الله تعالى لعباده هو دين الجهاد في سبيل الله. إنه ما من عاقل إلا ويعرف أن المسلمين لم يعتد الأعداء على حرماتهم، ولم يدنّسوا مقدساتهم، ولم يدوسوا على كراماتهم إلا بسبب مخالفتهم لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، التي تدعو المسلمين لأن يجاهدوا في سبيله تعالى حق جهاده وأن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة. إن المسلمين لله رب العالمين هم الأحوج لمن يبصرهم بتعاليم هذا الدين الذي أكمله الله تعالى لنا، وأتم به النعمة علينا، ورضيه لنا، وفي مقدمة هذه التعاليم الجهاد في سبيل الله تعالى، أي بذل الأرواح والأموال رخيصة في سبيله جل وعلا. وإن هذه الأمة الإسلامية من الثابت يقيناً أنها أمة طيبة الأرومة نقية المعدن وكأنها صيغت من أكرم المعادن وأخلصها وأكثرها استعداداً لتقبل الحرارة الإيمانية وتحويلها بسرعة خاطفة إلى شعلة من الإيمان واليقين والاستعداد العجيب المذهل للبذل والتضحية وتحمل المشقات التي لا يطيقها إلا الرجال الأهل لأن يوثق بكفاءاتهم الإيمانية والعملية. وإن هذه الأمة الإسلامية أمانة نفيسة في أعناق مفكريها وذوي الحل والعقد من مسئوليها. عليهم أن يعملوا جاهدين لربط هذه الأمة الكريمة النبيلة جيداً بقرآن ربها جل وعلا وسنة نبيها محمد ﷺ. وسيتبين بعون الله تعالى في القريب العاجل أن هذه الأمة المسلمة لله رب العالمين سرعان ما أعادت للأذهان ذكريات معارك الإسلام الفاصلة من أمثال اليرموك وحطين

وعين جالوت وملا ذكرد. والمعركة الأخيرة هي التي انتصر فيها الملك السلجوقي ألب أرسلان على امبراطور الروم رومانوس ديوجينس وأسره ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتداه قومه بمبلغ كبير من المال. وعقدت معاهدة مدتها خمسون عاماً بين الطرفين تعهد فيها الروم بدفع الجزية للسلاجقة. وقد أمر نظام الملك الوزير السلجوقي أن يرسل إمبراطور الروم الجزية المفروضة على بلاده منذ موقعة ملاذكرد إلى كاشغر حيث حدود دولة السلاجقة شرقاً إشعاراً للعالم المسيحي بقوة الدولة الإسلامية واتساعها البعيد المدى.

وإنه بعون الله تعالى سيثبت لخصوم الإسلام أن أول مسمار حقيقي يدق في نعش إسرائيل هو احتلالها للقدس الشريف واستيلاؤها على المسجد الأقصى. وفي سبيل هذه الغايات النبيلة نحن نجد أن أحسن كلام يسمع وأحلاه وقعاً في النفس والقلب وأقنعه للعقل واللب قوله تعالى [1]: **﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾**، إنه ليس أحب للمسلمين لله رب العالمين في جهادهم في سبيل الله تعالى من إحدى الحسنيين. الشهادة أو النصر على الأعداء. نسأل الله تعالى أن يهيء للمسلمين من أمرهم رشداً إنه سميع مجيب.

وبهذه المناسبة أود أن أبين أن هذه الدراسة المتعلقة بسورة مدنية خلافاً للدراسات السابقة المماثلة المتعلقة بسور مكية، إنما كانت استجابة لدعوة كريمة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في المملكة العربية السعودية، بأن أعمل دراسة للمؤتمر الذي تنوي عقده بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري، وإحساساً مني بواجبي بادرت بالاستجابة للإسهام في هذا المؤتمر بدراسة متأملة لسورة من سور القرآن الكريم، من نوع الدراسات التي أقوم بها

---

(١) سورة براءة ٥٢.

في المجال البياني للقرآن الكريم، وقد وقع الاختيار على سورة محمد عليه الصّلاة والسلام لأنها تحمل اسمه ﷺ ولأن موضوعها الرئيسي الجهاد في سبيل الله تعالى ونحن المسلمين أمس الناس حاجة له، فهماً وتطبيقاً. وهأنذا شاكراً لله تعالى. أقدم هذه الدراسة التي بذلت فيها كل ما أوتيت من طاقة سائلاً الله تعالى أن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى أقوم سبيل إنه على ما يشاء قدير.

وأبادر إلى القول بأن من كانت له أي ملاحظة على هذه الدراسة فلا يتردد في إبدائها فالحق أحق أن يتبع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين.

الدّكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
بجامعة أمّ القرى
بمكّة المكرّمة

مكة المكرمة يوم الاثنين الموافق التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول ١٣٩٩ هـ. السادس والعشرين من شهر فبراير ١٩٧٩ م.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ
وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ
مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ
يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ
وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ
وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ
حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ وَٱلَّذِينَ
ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ
وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ
﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي
لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ
ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ
أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ
وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ
وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ
وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ
تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ
لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ
فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن
تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

«فكرة»

أوّل مسمارٍ حقيقيّ يدقّ في نعش
إسرائيل هو احتلالها للقدس الشّريف
واستيلاؤها على المسجد الأقصى.

حسن

تَوطـــئة

ثمة بعض المسائل التي نود أن نقدمها بين يديّ دراستنا المتأملة للسورة الكريمة .

١ ـ سورة محمد عليه الصّلاة والسلام أو القتال[١] أو الذين كفروا[٢] مدنية عند الأكثر[٣] وقال الضحاك وابن جبير والسدي مكية وقال ابن عطية مدنية بإجماع وليس كما قال . وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت بعد حجه حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهي : وكأين من قرية الآية[٤] . ويقول القرطبي[٥] : «سورة القتال وهي سورة محمد ﷺ مدنية في قول ابن عباس ، ذكره النحاس . وقال الماوردي : في قول الجميع إلاّ ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه فنزل عليه وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك . وقال الثعلبي إنها مكية وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير» وقيل إنّ هذه الآية الثالثة عشرة «وكأين من قرية» نزلت في الطريق أثناء الهجرة ، وهو المشهور .

---

(١) البحر المحيط ٨ ـ ٦٩ والكشاف ٣ ـ ١٢٦ وتفسير القرطبي ص ٦٠٤٣ .
(٢) صحيح البخاري ٦ ـ ١٦٧ وفتح القدير للشوكاني ٥ ـ ٢٨ .
(٣) البحر المحيط ٨ ـ ٧٢ .
(٤) البحر المحيط ٨ ـ ٧٢ .
(٥) ص ٦٠٤٣ .

وحروف السورة ألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون وكلماتها خمسمائة وأربعون وآياتها ثمان وثلاثون[١] وقيل تسع وثلاثون[٢] وقيل أربعون[٣] . أما بشأن الوقت الذي نزلت فيه السورة الكريمة فيبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة في حديثها عن المنافقين والكافرين أنها كانت بعد غزوة بدر ،وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود وضعف مركز المنافقين[٤] وجاء في الإتقان[٥] بشأن نزول المدني من القرآن : «ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد . . .» وجاء في تفسير القرطبي[٦] بشأن نزوله قوله تعالى : **﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾** قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب إذ صاح المشركون : يوم بيوم . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي ﷺ قولوا : «الله مولانا ولا مولى لكم» وجاء في تفسير ابن كثير[٧] بأن قوله تعالى : **﴿فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾** والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال[٨] : **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾** .

---

(١) تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان مطبوع بهامش تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢١ .
(٢) انظر تفسير القرطبي ٦٠٤٣ .
(٣) البحر المحيط ٨ ـ ٦٩ .
(٤) انظر في ظلال القرآن ص ٣٢٧٩ .
(٥) ١-٤٣ .
(٦) ص ٦٠٥٤ .
(٧) ٤ ـ ١٧٣ .
(٨) سورة الأنفال ٦٧، ٦٨ .

٣ ــ تتحدث سورة محمد عليه السلام عن ثلاث فئات رئيسية هي وفق الحديث عنها ، الكافرون ، المؤمنون ، المنافقون .

٤ ــ أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يقرأ بهم في المغرب : ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**﴾[1].

٥ ــ أمكن تقسيم السورة الكريمة وفق القضايا المتجانسة التي تعرض لها إلى ثمانية أقسام على النحو التالي .

القسم الأول ويتكون من ثلاث آيات	(١ ــ ٣) .
القسم الثاني ويتكون من ثلاث آيات	(٤ ــ ٦) .
القسم الثالث ويتكوّن من تسع آيات	(٧ ــ ١٥) .
القسم الرابع ويتكوّن من أربع آيات	(١٦ ــ ١٩) .
القسم الخامس ويتكوّن من خمس آيات	(٢٠ ــ ٢٤) .
القسم السادس ويتكوّن من ست آيات	(٢٥ ــ ٣٠) .
القسم السابع ويتكوّن من أربع آيات	(٣١ ــ ٣٤) .
القسم الثامن ويتكوّن من أربع آيات	(٣٥ ــ ٣٨) .

٦ ــ لهذه السورة الكريمة عدد من الظواهر الأسلوبية منها أن السياق يراعي أحياناً اللفظ وأحياناً المعنى . فعلى سبيل المثال قوله تعالى : ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم**﴾ توزع فيها الحديث بين مراعاة لفظ القرية وبين مراعاة معناه أي أهل القرية . لقد روعي لفظ القرية في قوله تعالى من الآية الكريمة ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك**﴾ وروعي معنى اللفظ بمعنى أهل القرية أو سكانها في القول ﴿**أهلناهم فلا ناصر لهم**﴾ وإن هذه الظاهرة الأسلوبية ذاتها تلاحظ في الآية الكريمة التالية : ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله**

---

(١) فتح القدير ٥ ـ ٢٨ .

واتبعوا أهواءهم﴾ إن التعبير يحمل مرة على اللفظ ومرة على المعنى . أما مراعاة اللفظ ففي هذا الجزء من الآية الكريمة الذي يراعي فيه «من» فيكون الحديث عن المفرد . قال تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ وأما مراعاة المعنى ففي هذا الجزء الباقي من الآية الكريمة الذي يراعي فيه الجمع . قال تعالى : ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ . وكما قارنت هذه الآية الكريمة بين من كان على بينة من ربه وبين من زين له سوء عمله واتبع هواه ، تمت المقارنة في الآية الكريمة التالية بين حال كل من الفريقين أصحاب الجنة وأصحاب النار . وكان ذلك على غرار ترتيب الحديث السابق على المتقين أولاً والمجرمين ثانياً وكان التقدير : أفمن هو خالد في الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار . والجواب معروف . وذلك على غرار الجواب في الآية الكريمة السابقة ، إنهم لا يستوون . إننا في حقيقة الأمر بصدد مظهر من مظاهر إعجاز النظم القرآني عن طريق البلاغة بالحذف ويمكن ببساطة اكتشاف ذلك الحذف وإدراك الإعجاز بسببه حينما يتم الجمع بين هذه الآية الكريمة والآية السابقة عليها إذ تعتبر المتأخرة مكملة معنوياً للسابقة المتضمنة المقارنة صريحة بين من كان على بينة من ربه ومن زين له سوء عمله واتبع هواه . وإن الآية الكريمة التالية يكتفي فيها بالشق الثاني من المقارنة باعتبار الشق الأول مفهوماً لكل ذي بصيرة نيرة لكون الآيتين الكريمتين متلاحمتين معنوياً .

ومن أهم ما وقفنا عنده ملياً بشأن الظاهرة ذاتها آراء العلماء تجاه قوله تعالى : ﴿فأولى لهم ، طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ إن فريقاً من العلماء يذهب إلى ان القول ﴿أولى لهم﴾ مبتدأ خبره ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ والقول ﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ بأنه جواب للشرط في القول ﴿فإذا عزم الأمر﴾ على أن جمهور العلماء يرون أن كلاً من الجزئيات الأربع مستقلة المعنى . والذي يجعلنا نرجح رأي جمهور العلماء هو أن القرآن الكريم يستعير في العادة طرائق العرب في التعبير ومن ذلك القول ﴿أولى

لك﴾في سورة القيامة والقول ﴿أولى لهم﴾ والمعروف أن الكلام هنا على الحذف على نحو ما يبدو بوضوح من القول في سورة القيامة ﴿أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى﴾ وأن هذا النوع من البلاغة بالحذف ، مشجع على الذهاب إلى المحذف ذاته في الجزأين التاليين خاصة وقد عرفنا أن من خصائص هذه السورة الكريمة أسلوبياً أن الظاهرة التعبيرية فيها تجيء متتابعة في أماكن متقاربة مرتين فأكثر على نحو ما مر بنا بشأن البلاغة بالحذف في الآيات والحث على المقارنة بين الأحوال والصفات .

٧ ـ لقد استشرنا المعاجم اللغوية كثيراً في سبيل تعيين المعنى المناسب للألفاظ وتكاد تكون لفظة لحن من قوله تعالى : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أكثر الألفاظ وقوفاً عندها من جانبنا بسبب ما ارتبط بهذه اللفظة من حياة وحركة لازمتها خلال العصور ، قبل نزول القرآن الكريم وبعده . إن لفظة اللحن أساساً تفيد الميل مجرداً . فالمعاجم تذهب إلى أن القول : لحن إليّ هو بمعنى مال إليّ ومن هنا تدل مشتقات هذه المادة على الميل والتحول عن الهيئة المألوفة دون أن يعني ذلك بالضرورة أن التحول من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب . ومن هنا كان معنى لحن بكسر الحاء على وزن فطن ومعناه ، أي سريع الميل والالتفات . وقد ارتبط باللحن في تلك المرحلة العدول عن المعروف والمألوف بدافع التعمية على بعض السامعين ، وبقصد أن يفهم عن المتكلم شخص واحد بعينه أو أشخاص بأعيانهم . ويكون هذا اللحن في هيئة العدول عن مألوف الكلام أو العدول بالكلام ذاته عن مألوف معناه . ويحتاج ذلك إلى نوع من الاتفاق المسبق أو التفاهم بين الأطراف المعنيين بأن تستعمل ألفاظ بأعيانها لظاهرها معنى ولباطنها معنى آخر . كما يكون هذا النوع من اللحن محتاجاً دائماً وأبداً إلى فطنة السامع وذكائه بحيث يكون دائماً وأبداً قادراً على اقتناص ما خفي فهمه على الآخرين . وهذا النوع من الميل بالكلام عن جهته يكون في الخير . فهذا المصطفى ﷺ يبعث رجلين إلى

بعض الثغور عيناً ويقول لهما إذا انصرفتما فالحنا لي لحناً . أي أشيرا إليّ ولا تفصحا ، وعرّضا بما رأيتما . كما يكون ذلك كذلك في الشر على نحو لحن القول من قبل المنافقين الذين أشار إليهم قوله تعالى : ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ .

٨ ـ السورة الكريمة من المدني من القرآن . والمعروف أن تفاصيل الأحكام مرتبط بالمدني من القرآن الذي نزل بعد الهجرة لأن المجتمع الإسلامي أهل آنذاك لتطبيقها كما أن الدولة التي من حقها وحدها تطبيق الأحكام قد وجدت في المدينة المنورة لأول مرة . ومن الأحكام التي تضمنتها السورة الكريمة طريقة المسلمين في معاملة أسرى الكافرين بعد أن ضربوا في ميدان المعركة رقابهم وكل بنان منهم حتى أثخنوهم بالجراح وشدوا وثاقهم . إن سورة محمد عليه الصّلاة والسلام الكريمة التي تتحدث وحدها عن طريقة معاملة الأسرى تشير إلى المن والفداء مقدمة المن لأن ذلك من مكارم الأخلاق . وتسكت تماماً عن حالين أخريين طبقهما الرسول ﷺ إضافة إلى المن والفداء في حق بعض الأسرى . والمعروف أن سنة المصطفى ﷺ مبينة للقرآن الكريم ومفصلة لمجمله . وقد انتهينا إلى أن من حق الإمام أن يعمل بالأسرى ما يوافق المصلحة العامة وذلك في ضوء معاملة الخصوم لأسرانا . إن هم منوا على أسرانا مننا على أسراهم . وإن فادوهم فاديناهم . وإن قتلوهم قتلناهم . وإن استرقوا أسرى المسلمين استرققنا أسراهم . وإليك آخر نص قرأت أثناء دراسة هذه السورة الكريمة دليلاً على استرقاق الخصوم لأسرى المسلمين . ونبادر إلى القول إن الإسلام وحده هو أول من رفع الرقيق إلى مستوى الإنسان وقد كان من قبل في مستوى الأشياء . هذا إلى أن الإسلام بأسلوبه الحكيم يعالج هذه القضية معالجته لغيرها من القضايا المتغلغلة في أحشاء المجتمعات ونجح كعادته في حين أخفق الآخرون بدليل أنك لا تجد مسترقاً واحداً في كل ديار الإسلام بينما

الزنوج في أميركا مثلاً وهم يزيدون الآن على الثلاثين مليوناً يعاملون معاملة سيئة كمعاملة الرقيق من ذي قبل في جوهرها . جاء في الصفحة التاسعة والثمانين من مجلة العربي العدد ٢٤٣ وفي ثنايا التحقيق المصور عن جزيرة مالطة في البحر الأبيض المتوسط وتحت العنوان الفرعي «كالذي يؤذن في مالطة» إشارة إلى التعصب البغيض ضد المسلمين كي يغادروا البلاد أو يتنصروا ، ونجاح التعصب المقيت ضد المسلمين في القضاء على الإسلام بالكلية «فأين ذهب المسلمون ؟» يجيب كتاب بريطاني بعنوان «مالطة قبل حكم الفرسان» جمع مادته لوتريل : شهدت مالطة عام ١٢٢٤ موجة من نفي المسلمين إلى خارجها وفي هذه الفترة أقيمت الكنائس والقصور والقلاع بواسطة الأسرى الذين يمثل المسلمون عدداً كبيراً منهم والذي عرف تحديداً أن من بينهم ٤٨ مسلماً من جربة في تونس وسجلت الوثائق بيع طفلة مسلمة تبلغ من العمر عشرة أعوام بيضاء لوحتها الشمس في جنوة عام ١٢٤٨ . وبدأت ظاهرة الذين يدّعون (يتظاهرون باعتناق) المسيحية تجنباً للحرق أو النفي» وما دام الحديث قد تطرّق إلى إحراق خصوم الإسلام للمسلمين بالنار إن هم استمروا مسلمين لله رب العالمين فإنا نود أن نقتبس فقرة أخرى من الاستطلاع . جاء في الصفحة التاسعة والسبعين ما يلي : «وتركت دير الدومنيكان لأقوم بزيارة أحد المباني العتيقة والتي تحكي بقية القصة (الكلام تحت عنوان فرعي : أين الجامع) وقفت السيارة في ساحة الفيتوريوزا المكان الذي تمّ فيه إحراق الهراطقة خلال محاكم التفتيش عندما كانت الكنيسة تراقب الضمائر وتقمع الأفكار الجديدة ويقدم إلى هذه المحكمة كل من بقي على إسلامه سراً ويوشي به أو يضبط صائماً أو مصلياً ، ويلقى به في غياهب هذه السراديب والأقبية المظلمة ، وتسجل جدرانها قصة الذين يدفعون حياتهم ثمناً لمعتقداتهم فبخطوط مرتعشة بقيت كتابات عربية تقول : «إن الله مع الصالحين» وعبارة أخرى تعكس المقاومة الإنسانية : لا دين إلا دين الإسلام . خطها الواقعون تحت سياط التعذب»

ويقول الأستاذ محمد المجذوب[1] : «ولا يزال حديث محاكم التفتيش وتقتيل أحرار الفكر بيد قضاة الكنيسة يشكل بقعة الظلمة في جبين التاريخ الحديث وحسبك أن تتذكر أنها جعلت حكم الموت أو التحريق نصيب كل من يعثر على كتاب معه من تأليف العرب ولو كان بحثاً في الزراعة . . .» ! .

٩ ــ دراستنا المتأملة لسورة محمد عليه الصّلاة والسلام عنيت بدرجة متوازية أو تكاد تكون كذلك بين محاولة تبيين مظاهر الإعجاز البلاغي فيها وبين محاولة تبيين الدروس التي يمكن أن تستفاد وبخاصة في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى فما أحوج المسلمين أن يرضعوا أطفالهم جنباً إلى جنب لبن ثدي الأمهات روح الجهاد في سبيل الله تعالى لأن المسلمين المعاصرين قد ابتعدوا كثيراً عن فن صناعة الموت التي حذقها آباؤهم وأجدادهم المجاهدون في سبيل الله تعالى من أجل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

١٠ ــ سورة محمد عليه الصّلاة والسلام عنيفة في اسلوبها ، عنيفة في معانيها ، عنيفة في أصواتها وجرسها . وقد تعاون كل من المعنى والمبنى على إحداث تلك الحالات من الانفعال والحماس لدى كلّ من يتلو هذه السورة الكريمة أو تتلى عليه بحيث إنها تبدو بحق وكأنها ذلك النشيد الحربي العنيف المزمجر الصاخب القادر على تحويل المقاتلين براكين ثائرة هائجة مائجة متفجرة ترمي بحممها ولهيبها وقذائفها في كل اتجاه . وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن بصدد سورة كريمة من أسمائها القتال . يعلن فيها رب العزة الحرب على الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى . يقول سيد قطب في ظلال القرآن[2] : «إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها يظللها جو القتال

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٧٣ .
(٢) ص ٣٣٨٠ .

وتتسم بطابعه في كل فقراتها . وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة : أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم . وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء . أوزارها أمثالها أقفالها .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها فالقتال أو القتل يقول عنه : فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . والتقتيل والأسر يصوره بشدة : حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس : فتعساً لهم وأضل أعمالهم . وهلاك الكافرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً : دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد : وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم . وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء كذلك في مشهد عنيف : ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت . حتى تحذير المؤمنين من التولّي يجيء في تهديد نهائي حاسم : **﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**. وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال» .

وثمة ملاحظات بشأن التعاون بين جرس الألفاظ ودوي الأصوات والفاصلة نود أن نسجلها فيما يلي :

أ ــ عدد آيات السورة كما عرفنا ثمان وثلاثون آية تجيء فاصلة الميم التي تشبه طلقات المدافع الثقيلة في ست وثلاثين آية . بينما تجيء فاصلة الهاء الممدودة التي تشبه التلويح بالسلاح الأبيض في آيتين اثنتين هما العاشرة والرابعة والعشرون .

ب ــ فاصلة الهاء الممدودة التي جاءت في الآية الكريمة العاشرة قد مهد لها بفاصلة داخلية من نوعها في الآية الكريمة الرابعة . **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾**. والتي جاءت في الآية الكريمة الرابعة والعشرين قد مهد لها بفاصلة داخلية من نوعها في الآية الثامنة عشرة **﴿فقد جاء أشراطها﴾** ويلاحظ أن

الفواصل الأربع جاءت في صيغة صوتية واحدة . أوزارها . أمثالها . أشراطها . أقفالها .

جـ ـ الآية العاشرة ذات فاصلة الهاء الممدودة جاءت فيها الميم داخلياً مرتين في صيغة موافقة للصيغة التي جاءت فيها الفاصلة قال تعالى ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها**﴾ فصوت طلقات المدافع موجود بجوار التلويح بالسيوف .

د ـ الآية الرابعة التي جاءت فيها الفاصلة الداخلية المهيئة للفاصلة الخارجية «ها» جاءت فيها صيغة داخلية مقاربة للصيغة التي تجيء فيها الفاصلة الغالبة ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ ﴿**لانتصر منهم**﴾ ﴿**فلن يضل أعمالهم**﴾ .

هـ ـ الآية الثامنة عشرة التي جاءت فيها الفاصلة الداخلية المهيئة للفاصلة الخارجية في الآية الرابعة والعشرين جاءت فيها صيغة داخلية مماثلة للصيغة التي جاءت فيها الفاصلة الميمية إضافة إلى صيغة أخرى مقاربة ﴿**فهل ينظرون إلّا الساعة أن تأتيهم**﴾ . ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ . ﴿**فأني إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ .

و ـ إذا استعرضنا السورة الكريمة من جهة موافقة ثنايا آياتها صوتياً للصيغة التي جاءت فيها الفاصلة ميماً ، تبينّا أن التشابه كثير وكبير بدرجة عجيبة معمقة لتلك النغمة الصوتية القتالية التي تختم بها آيات السورة الكريمة . والتي تشبه طلقات المدافع الهائلة . وهذا إحصاء تقريبي للمواطن التي تبدو فيها هذه الخاصة وما شابهها من خواص صوتية بشكل بارز .

الآية الثانية : ربهم ، سيئاتهم ، بالهم .

الآية الثالثة : من ربهم ، أمثالهم .

الآية الرابعة : أوزارها ، لانتصر منهم ، لن يضل أعمالهم .

الآية الخامسة : سيهديهم ويصلح بالهم .

الآية السادسة : عرفها لهم .

الآية السابعة : ينصركم ويثبت أقدامكم .
الآية الثامنة : فتعساً لهم وأضل أعمالهم .
الآية التاسعة : ذلك بأنهم . فأحبط أعمالهم .
الآية العاشرة : من قبلهم . دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها .
الآية الثالثة عشرة : أهلكناهم . فلا ناصر لهم .
الآية الرابعة عشرة : من ربه . سوء عمله . أهواءهم .
الآية الخامسة عشرة : ولهم فيها . ومغفرة من ربهم . فقطع أمعاءهم .
الآية السادسة عشرة : ومنهم . طبع الله على قلوبهم . أهواءهم .
الآية السابعة عشرة : وآتاهم . تقواهم .
الآية الثامنة عشرة : أشراطها . فأنى لهم . إذا جاءتهم . ذكراهم .
الآية التاسعة عشرة : والله يعلم . متقلبكم . ومثواكم .
الآية العشرون : في قلوبهم . فأولى لهم .
الآية الثانية والعشرون : فهل عسيتم . إن توليتم . أرحامكم .
الآية الثالثة والعشرون : لعنهم . فأصمهم . أبصارهم .
الآية الخامسة والعشرون : على أدبارهم . سول لهم . أملى لهم .
الآية السادسة والعشرون : بأنهم . سنطيعكم . أسرارهم .
الآية السابعة والعشرون : وجوههم . أدبارهم .
الآية التاسعة والعشرون : في قلوبهم . أضغانهم .
الآية الثلاثون : لأريناكهم . فلعرفتهم . بسيماهم . أعمالكم .
الآية الحادية والثلاثون : ولنبلونكم . منكم . أخباركم .
الآية الخامسة والثلاثون : معكم . يتركم . أعمالكم .
الآية السادسة والثلاثون : يؤتكم . أجوركم . ولا يسألكم . أموالكم .
الآية السابعة والثلاثون : يسألكموها . فيحفكم . أضغانكم .

الآية الثامنة والثلاثون : فمنكم . غيركم . أمثالكم .

ز ـ إذا تجاوزنا حرف الميم الذي جاء فاصلة في ست وثلاثين آية من ثمان وثلاثين آية . فإن كل آيات السورة الكريمة بلا استثناء وبصرف النظر عن الفاصلة يوجد في أثنائها حرف الميم هذا . وهو يوجد وفق هذه الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ٢٢ . وتوجد هذه الأعداد على سبيل المثال في الآيات التالية على التوالي : الأولى ، السابعة عشرة ، السابعة ، الثانية والثلاثين ، السادسة والعشرين ، الخامسة والعشرين ، العاشرة ، العشرين ، التاسعة عشرة ، الرابعة ، الخامسة عشرة .

إن وجود حرف الميم في هذه السورة الكريمة التي تمتاز بكون فاصلتها الغالبة ميماً قد أغرى بالنظر في سورة لاحقة وسابقة . لقد تبين أن الآية الثالثة من سورة الفتح اللاحقة تخلو من حرف الميم . بينما يوجد هذا الحرف في كل آيات سورة الأحقاف السابقة . ولا ننسى أن سورة محمد عليه السلام ذات نغمة صوتية خاصة بها وأن لحرف الميم الساكن فيها دوراً فريداً بين كل سور القرآن الكريم .

بعد هذه التوطئة التي سجلنا في أثنائها بعض المسائل المتعلقة بسورة محمد عليه الصّلاة والسلام الكريمة ، نتحول مستعينين بالله تعالى إلى الدراسة المتأملة .

الدّراسة المتأمّلة لسورة محمّد
عليه الصّلاة والسلام

القسم الأول

الذّين كفروا أضلّ أعمالهم

والذّين آمنوا أصلح بالهم

قال تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾.

وهذا القسم يتكوّن – كما هو واضح – من ثلاث آيات كريمات . وأول ما يلاحظ أن الآية الكريمة الأولى تتكون من ثلاثة مقاطع أو ثلاث جزئيات ، بينما الآية الثانية تتكوّن من ست جزئيات والثالثة من ثلاث.

الآية الكريمة الأولى : ﴿الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم﴾.

والآية الكريمة الثانية : ﴿والذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم﴾.

والآية الكريمة الثالثة : ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾

إن كون الآيتين الكريمتين ، الأولى والثالثة تتفقان في عدد الجزئيات وكون مجموع الجزئيات في الآيتين الكريمتين مساوياً لعددها في الآية الكريمة الثانية . أمر يغري بالتأمل ومحاولة تبيين الروابط بين المعاني ، والحكمة من

تركيبها في هذه الصورة ، التي أدت إلى هذا الجمال في الشكل والجلال في المباني .

الآية الكريمة الأولى تتحدث عن الذين كفروا بأن جحدوا وحدانية الله تعالى ونعمه وآياته فأشركوا غير الله تعالى معه في العبادة ولم يكتفوا بذلك وهذا أمر غاية في السوء ، بل صدّوا عن سبيل الرشد من رغب في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والإيمان بمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً . وكانت النتيجة أن أضل الله تعالى أعمالهم . إنّهم إذا كانوا قمة في الضلال بكفرهم ، فقد ازدادوا كفراً بصدهم الآخرين عن سواء السبيل ، فاستحقوا أن يزيدهم عز وجل ضلالاً إلى ضلالهم وأن يمدهم في طغيانهم يعمهون . إنهم صفر من كل خير ، لأن أعمالهم ضلال فوق ضلال ، ولا عبرة بأعمالهم الطيبة التي قاموا بها ، من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وإكرام ضيف ، ورعاية حقوق جار وما إلى ذلك . . . لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب إشراكهم غير الله تعالى معه . قال عز من قائل(1) : **﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾** .

والآية الكريمة الثانية تتحدث عن الذين آمنوا بأن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وعملوا وفق هذا الإيمان . وبعبارة أخرى ، ترجموا الإيمان بالقلب إلى عمل بالجوارح لأن الإيمان الداخلي ينبغي أن يكون عليه شاهد خارجي من جنسه هو العمل الصالح . إن الكافرين من ذي قبل تحولوا بكفرهم إلى صدّ للآخرين عن سبيل الله ، وإن المؤمنين تحولوا بإيمانهم إلى عمل صالح . ويلاحظ أن الفكرتين هنا متجانستان أو مرتبطتان معنوياً بدرجة كبيرة من الرباط أو التلاحم ، ويلاحظ كذلك أننا ما زلنا في انتظار ثواب هؤلاء المؤمنين الذين

---

(1) سورة الفرقان ٢٣ .

يعملون الصالحات وسيكون ذلك في القول «كفر عنهم سيئاتهم» . ولكن الذي أرجأ الحديث عن الثواب إيمان من نوع آخر ، يعتبر متمماً للإيمان بوحدانية الله تعالى وترجمة لهذه الوحدانية إلى سلوك في الحياة . وهذا النوع الثاني من الإيمان ، يتعلق بالرسول الكريم ، وما أنزل إليه من قرآن مجيد هو الحق عين الحق .

إن هؤلاء المؤمنين إذا كانوا قد ترجموا الإيمان بالله تعالى إلى عمل طيب صالح ، فإن إيمانهم بما أنزل على النبي ﷺ من قرآن مجيد ، قد ترجموه إلى عمل ، لأنهم على يقين من كونه عز وجل قد أنزل هذا القرآن بالحق وبالحقّ نزل . وما هي الخطوة التي تسبق هذه المرحلة من الإيمان بالقرآن المجيد ؟ . . . إنها الخطوة التي يكون معها الإيمان بكونه ﷺ رسول رب العالمين ، وبكون كل ما جاء به ﷺ من أوامر ونواه ، إنما هو من عند الله تعالى . ويلاحظ أننا ما زلنا بصدد فكرتين اثنتين معاً ، على غرار الفكرتين السابقتين ، وليس بصدد فكرة واحدة فقط ، وهاتان الفكرتان هما الإيمان بما أنزل على محمد ، وهو القرآن المجيد ، وبكون القرآن المجيد كله هو الحق من الله تعالى .

وبما أننا في هذه الآية الكريمة الثانية بصدد فكرتين ، تتكون كل من شقين أو جزأين ، وبما أن الآية الكريمة الأولى في السورة الكريمة تتكون من فكرتين ، تليهما الثمرة أو النتيجة ، في هيئة جزئية ثالثة ، قال تعالى : ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم**﴾ فمعنى هذا أن من حقنا أن نتوقع جزاءين مقابل الفكرتين اللتين جاءت كل منهما في جزئيتين ، خاصة وأنّ الفكرتين في الآية الكريمة الأولى تستأثر كل بجزئية كما أن الجزاء نفسه يستأثر بجزئية . والذي يقوي من هذا التوقع هو كون كل من الفكرتين في جزئيتين متلاحمتين فكأنهما تشكلان قسماً قائماً برأسه . وإن الذي يتوقع قد حدث فعلاً قال تعالى : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنْهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾

إن ثواب الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله وبما أنزل على رسوله وعملوا الصالحات أن يكفّر الله تعالى عنهم سيئاتهم . وأن يصلح بالهم وشأنهم في الحياتين الأولى والآخرة .

والآية الكريمة الثالثة تبين شيئين مهمين . أولهما وهو السبب في كون الكافرين قد أضلّ الله تعالى أعمالهم ، وكون المؤمنين المتقين كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . وثانيهما العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من معرفة سبب الضلال والهداية إضلال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم إن الكافرين اتبعوا الباطل بمعنى الشيطان والهوى وإن المؤمنين أتبعوا الحق من ربهم، ألا وهو القرآن الكريم الذي يهدي للطريقة التي هي أقوم **﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربّهم﴾**.. وإن العبرة إنما تؤخذ من عجز الآية الكريمة **﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾**. إنه عن طريق الكشف عن حقيقة دخائل النفوس . ووصف الأعمال وتبيين الصفات وتعيين الجزاء يفهم كل المتدبرين للقرآن الكريم الصنف الذي ينتمون إليه من الذين سعدوا أم من الذين شقوا ، والمصير الذي ينتظرهم .

ويلاحظ أن الحديث هنا عن الفريقين ، الكافرين ، والمؤمنين ، وعن العبرة ، قد استأثر كل بجزء من أجزاء الآية الكريمة الثلاثة وقد سارت المعاني وفق الطابع العام للسياق ، حيث يتقدم دائماً الحديث عن الكافرين ويتأخر الحديث عن المؤمنين ، لان السورة الكريمة مكية عنيفة في أسلوبها عنيفة في معانيها .

وبعد هذه النظرة الأولى لآيات القسم ، نحن بحاجة إلى نظرة ثانية . فمع الآية الكريمة الأولى .

قال تعالى : **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم﴾**. قال بعض أهل العلم : الكفر على أربعة أنحاء . كفر إنكار بألا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به . وكفر جحود ، وكفر معاندة ، وكفر نفاق. من لقي ربه بشيء

من ذلك لم يغفر له ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ، وكذلك روى في قوله تعالى : ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون**﴾ أي الذين كفروا بتوحيد الله . وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ، ككفر إبليس وكفر أمية بن أبي الصلت . ومنه قوله تعالى : ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾ يعني كفر الجحود . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ، ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه . وفي التهذيب : يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه ، ويأبى أن يقبل كأبي طالب ، . . . وأما كفر النفاق فأن يقر بلسانه ويكفر بقلبه . . . ولا يعتقد بقلبه[1] . . .

فأي أنواع الكفر الأربعة يندرج تحت الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم**﴾ من حيث المبدأ كل أنواع الكفر تندرج تحت الآية الكريمة . ولكن بما أن سورة محمد عليه الصّلاة والسلام تتحدث عن ثلاث فئات رئيسية موجودة آنذاك ، المؤمنين والكافرين والمنافقين . وبما أن حديث صدر السورة الكريمة مقصور على الفئتين المتقابلتين جهراً وعلانية في الصفات والخصائص فمعنى هذا أن كفر النفاق له حظه في غير هذه الآية الكريمة بل في غير هذا القسم من السورة الكريمة . فبقي إذن ثلاثة أنواع من الكفر يصح ابتداء أن تشملها الآية الكريمة . وهذه الأنواع هي : كفر الإنكار ، وكفر الجحود ، وكفر المعاندة .

وفيما يتصل بكفر الإنكار ، بمعنى ألا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به فالملاحظ أن أصحاب هذا النوع من الكفر الذين يعرفون بالوجوديين في هذا العصر الجاهلي الذي نعيشه ، في هيئة أفراد ، لا بل في هيئة جماعات لا بل في

---

(١) اللسان «كفر».

هيئة دول وشعوب لا يكادون يعرفون قديماً إلاّ في هيئة الآحاد وفي فترات متقطعة من فترات التاريخ . والمعروف أن القرآن الكريم لم يأبه لهؤلاء الذين يخالفون الفطرة ويغالبونها ، لذا لا نجد القرآن الكريم يعني بهؤلاء في قليل ولا كثير لأن الإيمان بوجود الله تعالى والتوجه إليه وحده بالعبادة لا شريك له ، أصل من أصول فطرة الإنسان التي فطر الله تعالى الناس عليها وإنّ القضية الكبرى التي عنى القرآن الكريم بها هي قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة وتصحيح موقف المشركين الذين كفروا نعم الله تعالى وجحدوا توحيده والذين جاء عنهم مثلاً في سورة الزمر[1] قوله تعالى : ﴿**ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾.

وإن الإشارة إلى الذين قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا وما يهلكنا إلا الدهر على نحو ما أشار إلى ذلك قوله تعالى من سورة الجاثية[2] ﴿**وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون**﴾ لا ينبغي أن يفهم منها أن الدهريين الذين أشارت إليهم صراحة آية الجاثية ، لا يؤمنون بوجود الله تعالى لأن القضية التي تشغل القوم هي قضية البعث بعد الموت ، التي هم أقل مستوى من تمثلها ، فالإيمان بها فالعمل من أجلها ، يقول سيد قطب في كتابه معالم في الطريق[3] : «إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول ﷺ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ، وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق ولم يكن الناس ــ فيما عدا أفراداً

---

(١) آية ٣ .
(٢) آية ٢٤ .
(٣) القسم الخاص بنشأة المجتمع المسلم وخصائصه ص ٦٢ .

معدودة في فترات قصيرة ــ ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة . إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق . أو يشركون مع الله آلهة أخرى . إما في صورة الاعتقاد والعبادة وإما في صورة الحاكمية والاتباع . وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى إما في الاعتقاد والعبادة وإما في الاتباع والحاكمية وإما فيها جميعاً» .

وبناء على ما سبق نستطيع ان نستبعد كذلك كفر الإنكار . بالمعنى الذي أشرنا إليه ، استبعادنا من قبل كفر النفاق ولكن كفر الإنكار له معنى آخر في النص المقتبس من اللسان حيث يقول «فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد . وكذلك روي في قوله تعالى[1] : ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي الذين كفروا بتوحيد الله. وهذا يعني أن كفر الإنكار يكون بإنكار وجود الله تعالى والعياذ بالله . وسبق أن استبعدنا هذا المفهوم من اشتمال الآية الكريمة عليه لأنه لا وجود له قديماً كما يكون بكفر توحيد الله تعالى أي إنكار هذا التوحيد . وهذا معناه أن أصحاب هذا النوع من الكفر يشركون مع الله تعالى غيره وسبق أن عرفنا أن هذا النوع من الكفر أو الشرك هو الذي عنى القرآن الكريم به عناية كبيرة .

أما كفر الجحود ، بأن يعترف المرء بقلبه ولا يقرّ بلسانه ، وكفر المعاندة وهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ، ولا يدين به حسداً وبغياً . او يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يقبل فلا شك أنهما داخلان في مفهوم الكفر في الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ .

---

(١) سورة البقرة ٦.

إن كفر هؤلاء القوم هو الضلال عينه ، لان في ذلك صداً لأنفسهم عن سبيل الله ودين الله تعالى الذي رضيه للناس . وبما أن الآية الكريمة تشير جزئيتها الثالثة التعقيبية إلى أنه عز وجل قد أضل أعمال القوم بمعنى أنه أحبطها بما في ذلك التي يبدو أنها أعمال صالحة وبما أن الجزئية الثالثة هذه تشير إلى مرحلة متدرجة إلى أعلى: هي إضلال الله تعالى للقوم الكافرين وبما أن سنة الله تعالى قد اقتضت أن تمد الضالين في ضلالهم يعمهون ، فلا مانع إذن من اعتبار الجزئية الثانية في الآية الكريمة ، ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ممثلة لمرحلة تالية وسطى في التدرج إلى الأعلى بمعنى أنها لا تقف عندما تدل عليه الجزئية الأولى من كون الذين كفروا قد صدوا أنفسهم عن سبيل الله إنما تضيف إلى ذلك ما يفيد تمادي القوم في الضلال الذي استحقوا من أجله أن يزيدهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم . وهذا الذي تضيفه هو كون هؤلاء الكافرين قد صدّوا غيرهم عن سبيل الله تعالى[1] .

والحقيقة أن هذا هو العمل الذي يقوم به الكافرون في كل زمان ومكان سواء كان كفرهم كفر إنكار أو جحود أو معاندة أو نفاق . و«الكفر في اللغة التغطية . والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه بكفره . كما يقال للابس السلاح كافر ، وهو الذي غطاه السلاح»[2] و«سمى الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله عز وجل . قال الأزهري : ونعمه آياته الدالة على توحيده والنعم التي سترها الكافر هي الآيات التي أبانت لذوي التمييز أن خالقها واحد لا شريك له وكذلك إرسال الرسل بالآيات المعجزة والكتب المنزلة والبراهين الواضحة نعمة منه ظاهرة . فمن لم يصدق بها وردها فقد كفر نعمة الله أي سترها وحجبها عن نفسه»[3] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٢ والجلالين وتفسير الطبري ٦ ـ ٢٥ .
(٢) اللسان «كفر» .
(٣) اللسان «كفر» .

وسبق أن أشرنا إلى أن توحيد الإنسان لله تعالى أصل من أصول فطرة هذا الإنسان . فالكافر إذن قد التوى بهذه الفطرة عن استقامتها الطبيعية المتجهة إلى الايمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له . إن هذا الالتواء بالفطرة عن سواء السبيل من مظاهر كفر هذا الكافر لنعم الله تعالى .

وهذه هي الآية الكريمة الثانية . قال تعالى : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾.

هذه الآية الكريمة كما هو واضح تتحدث عن المؤمنين من عدة جوانب ونحن من جانبنا سنحاول مستعينين بالله تعالى تعيين هذه الجوانب وأبعادها ، وذلك عن طريق المقارنة بين هذه الآية الكريمة والآية السابقة عليها . بل يبدو أن المقارنة هي الوسيلة التي يلوح أنها أكثر فاعلية في مثل هذه المناسبة .

وأول ما يلاحظ من المقارنة أن الآية الكريمة الأولى تتكوّن من ثلاثة أقسام وكل قسم يستقل بجزئيته الخاصة به . ﴿**الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم**﴾ بينما هذه الآية الكريمة تتكوَّن من ثلاثة أقسام ولكن كل قسم يستقل بجزئيتين اثنتين . وليس بواحدة كالآية الاولى ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾. ومن زاوية المقارنة بين الآيتين الكريمتين تتضح أبعاد الثانية . الجزئية الأولى تتحدث عن الذين آمنوا . وفي ضوء معرفة الذين كفروا في الآية الأولى نستطيع أن نفهم أن الذين آمنوا يراد بهم الذين آمنوا بأن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . لأن عقولهم التي استعملوها استعمالاً صحيحاً قادتهم إلى هذه النتيجة الحتمية على حد قول للشاعر(١) :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

---

(١) تفسير ابن كثير ١ ـ ٢٤ .

وإذا كان من جانب الذين كفروا حيلولة لنور الإيمان أن يصلهم بعد أن عرفوا الحقائق التي يقول بها الواقع والفطرة والرسل والدلائل ، فإن من جانب المؤمنين إتاحة كاملة للوسائل كي تعمل عملها ، وبالتالي فإن إيمانهم يتجه عمقاً تبعاً لاتجاه كل الوسائل إلى أعماقهم . تلك الوسائل التي تجد من المؤمنين كل استجابة واستسلام وتشجيع .

وإذا كان هذا واقع المؤمنين وحقيقتهم فهل دين الإسلام الذي رضي الله تعالى لعباده يكتفي من المسلم لله رب العالمين بالإيمان القلبي دون أن يكون ثمة الشاهد الخارجي عليه في هيئة العمل الصالح ؟ لا ليس ثمة اكتفاء مطلقاً بالإيمان القلبي الذي يعتبر إيماناً ناقصاً أو سلبياً ما لم يترجم ذلك الإيمان إلى عمل صالح دائب ، وطاقة فعلية جبارة . ولهذا نتبين في القرآن الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، ولهذا نتبين في الآية الكريمة التي نحن بصددها الجمع بين الإيمان والعمل الصالح . ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ .

وهنا نجد أنفسنا مدفوعين إلى تقرير الحقيقة القائمة من كون مفهوم العبادة في الإسلام واسعاً إلى أبعد درجات الاتساع بحيث إن كل الأعمال الصالحة التي يريد بها صاحبها وجه ربه الأعلى تعتبر داخلة في مفهوم العبادة مهما كان ذلك العمل الصالح موغلاً في كونه نافلة . والحقيقة التي ينبغي التنويه بها هي أن تطبيق أركان الإسلام يأتي على رأس قائمة العمل الصالح الذي تعبدنا الله تعالى به .

وحينما تجمع الجزئية الكريمة الأولى بشقيها بين الإيمان والعمل تكون بذلك على غرار الجزئيتين الأوليين في الآية الكريمة الأولى اللتين تشيران إلى كون الذين كفروا جمعوا بين سوء الاعتقاد حينما أشركوا غير الله تعالى معه وبين سوء العمل حينما لم يقفوا عند مجرد الاعتقاد القلبي السيء إنما تجاوزوه إلى أبعد درجات سلم العمل السيء وذلك بصدهم غيرهم عن السبيل القويم ، إذ

حالوا بينهم وبين توحيد الله تعالى وفعل ما أمرهم الله تعالى به وأمرهم به رسوله الكريم والقرآن الحكيم .

وبما أن الجزئية الأولى بشقيها قد قابلت معنوياً الجزئيتين الأوليين من الآية الكريمة الأولى ، فما مكان الجزئية الثانية بشقيها : **﴿وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم﴾** .

إن دور الجزئية الكريمة بشقيها يعرف على طبيعته وحقيقته حينما يعرف أن الطريق الصحيح الموصل إلى الله تعالى إنما يكون من جهة رسله عز وجل الذين أيدهم بمعجزاته ، وهنا تشير الجزئية الكريمة إلى الجزء المكمل للإيمان بالله تعالى، وهو الإيمان بما نزل على محمد ﷺ أي القرآن الكريم الذي حمله من السماء إلى الارض رسول من الملائكة كريم إلى رسول من البشر كريم . وحينما يعلم أن رسول الأرض الكريم إنما هو قرآن يمشي على الأرض . وقد قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ : كان خلقه القرآن[1] . وقال ﷺ ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، يعني السنة[2] وليست السنة النبوية المطهرة سوى التطبيق العملي لفهم القرآن الكريم حينما يعلم كل ذلك تفهم أبعاد قوله تعالى : **﴿وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم﴾** .

إننا من ناحية بصدد إيمان كامل ذي شقين ، احدهما الإيمان بالله تعالى : **﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾** . وثانيهما الإيمان بما نزل على محمد ﷺ **﴿وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم﴾** إن علينا أن نعي هذين الشقين جيداً . ومن هنا يتبين خطورة الدعوى التي نسمعها الفينة بعد الفينة والتي يثيرها بعض المغرضين أو الجاهلين بالاكتفاء بالقرآن الكريم وإهمال السنة النبوية المطهرة التي

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ـ ٤٠٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ ـ ٣ .

تشتمل على أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته . لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أنّ السنة المطهرة ليست إلّا تبييناً للقرآن الكريم وتوضيحاً لغامضه وتفصيلاً لمجمله . قال عز من قائل[1] :

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ .

عرفنا أن الإيمان ذو شقين ، وعرفنا أن الإيمان بالقلب ينبغي أن يدل عليه العمل الصالح ويشهد له . وهذا معناه أن يتخذ الرسول الكريم الأسوة الحسنة . كما قال تعالى[2] «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» ولهذا نتبين أن الجزئية لم تشر إلى العمل مرة ثانية لأنه مفهوم ضمناً من الإشارة الأولى إليه ، ولأن الإيمان الصحيح بالله تعالى ، إنما جاء عن طريق الرسول الكريم الذي اصطفاه الله تعالى بالرسالة وأنزل عليه أشرف الكتب السماوية . وبما أن العمل الذي هو الدليل الأكيد على الإيمان معروف يقيناً ، فقد كانت الحاجة موجودة إلى تقرير حقيقة اليقين الآخر أو الحق الآخر ، لانه يترتب عليه صحة الإيمان والعمل معاً . وهذا اليقين الآخر أو الحق الآخر هو كون القرآن الكريم ، الذي نزل في أسمى طرق الوحي على قلب المصطفى ﷺ ، حقاً كله . لقد ذهب العلماء إلى كون الشق الثاني من الجزئية وهو الحق من ربهم جملة معترضة وينبغي أن يكون واضحاً في الأذهان تماماً أن الجملة المعترضة يؤتى بها للاستدراك بأمر غاية في الأهمية . وما أشد الحاجة في هذه المناسبة لشهادة البر الرحيم بكون القرآن الكريم هو الحق من الله تعالى . وينبغي أيضاً أن نتأمل أمرين الأول هو ذكر اسم المصطفى ﷺ ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ إن هذا مظهر من مظاهر رفع الذكر للمصطفى ﷺ وفي ذلك تسلية كان عليه الصلاة والسلام أشد الناس

---

(١) سورة النحل ٤٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٢١ .

حاجة إليها دائماً والمعروف أنه كان آنذاك في المدينة المنورة يواجه بجيشه القليل العدد والعدة دول الكفر والطغيان . لقد كانت الحاجة ماسة لتسليته وتثبيت فؤاده الكريم عن طريق الإشارة إلى جيش الإسلام الأكبر معه عليه الصلاة والسلام وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه والذي سبق أن خاطبه رب العزة بشأنه في سورة الفرقان بقوله[1] : ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾ يعني جاهدهم بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً .

والأمر الثاني لفظ الرب المضاف إليه ضمير جماعة الغائبين العائد إلى الذين آمنوا وذلك في قوله تعالى : ﴿**وهو الحق من ربهم**﴾ إن هؤلاء المؤمنين يؤمنون بالله تعالى ، ويؤمنون بالقرآن الحكيم وبالرسول الكريم . وها هو ذا القرآن الكريم ، مظهراً من مظاهر تأييد المؤمنين ، ينص على أن الله تعالى هو ربهم الذي يتولاهم بتربيته وبعنايته إذ المعروف أن لفظة الرب في القرآن الكريم ، تستعمل حينما يكون الجو عابقاً بشذا الرضا والسعادة والمحبة والانشراح وأن لفظة الرب في هذه المناسبة توحي بكل هذه المعاني الروحية السامية النبيلة فما أرأفه رب العزة بحبيبه المصطفى ﷺ وبعباده المؤمنين المتقين .

إن هذه الجملة الاعتراضية ﴿**وهو الحق من ربهم**﴾ تقرر حقيقة القرآن الكريم وتصف شعور المؤمنين المتقين تجاه القرآن الكريم بأنه الحق من ربهم . من ذا الذي يستطيع وقتاً من الأوقات ، وخلال العصور التالية أن يزعم أنه يفهم القرآن الكريم ويطبق تعاليمه ، فَهُمْ تلاميذ محمد بن عبد الله ﷺ وتطبيقهم لتعاليمه . لا أحد . وإن الآية الكريمة لتقول بكل ذلك .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة تبينا أنها على غرار الجزئيتين السابقتين تتكون من شقين أولهما يشير إلى تكفير الله تعالى سيئات الذين آمنوا وثانيهما يشير إلى إصلاح الله تعالى بالهم ﴿**كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾ .

---

(١) آية ٥٢ .

ويمكن أن يلاحظ على الجزئيتين ما يلي :

إن لفظة السيئات تشير إلى أن هؤلاء المؤمنين من الجائز أن يكونوا قد تورطوا في لمم الذنوب بخاصة . على أن أهم ما يعرف به هؤلاء المؤمنون هو أنهم يعودون من قريب إلى الصراط المستقيم ، يتوبون إلى الله تعالى ويستغفرونه ويهجرون سيء الأعمال بنية ألا يعودوا إليها مرة أخرى ويعملون الصالحات .

إن لفظة السيئات التي تشير إلى احتمال تورط هؤلاء المؤمنين وقتاً من الأوقات في لمم الذنوب أي هينها وبسيطها ، تفتح باب الأمل على مصراعيه للتائبين العابدين العاملين عملاً صالحاً . وان القول «كفر عنهم» يشير إلى رحمة الله تعالى الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات . إن القول «كفر عنهم» معناه ببساطة غفر لهم ، «والتكفير في المعاصي كالإحباط في الثواب . التهذيب . وسميت الكفارات كفارات لأنها تكفر الذنوب أي تسترها مثل كفارة الإيمان وكفارة الظهار والقتل الخطأ . . . وهي عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تمحوها وتسترها . وهي فعالة للمبالغة كقتّالة وضرّابة ، من الصفات الغالبة في باب الاسمية . . .

وفي الحديث : المؤمن مكفر ، أي مرزأ في نفسه وماله لتكفر خطاياه»[1] .

من هذه النصوص نستطيع ان نفهم أنه كان من هؤلاء المؤمنين الذين ارتكبوا السيئات في بعض الأحايين ، محاولة جادة من ناحيتهم لسترها والتعفية عليها ، وذلك في هيئة التوبة والعمل الصالح . ومعروف شروط التوبة التي أشارت إليها سورة النساء[2] . ومعروف أن رحمة البر الرحيم لا تقف عند محو السيئات إنما تتجاوز ذلك إلى تبديل السيئات حسنات ، كرماً منه عز وجل وفضلاً ، على نحو ما صرحت بذلك سورة الفرقان[3] في قوله تعالى : ﴿إلا من

---

(١) اللسان «كفر» .

(٢) آية ١٧ ، ١٨ .

(٣) آية ٧٠ .

تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ . وكأن آية سورة محمد تكتفي بالإشارة إلى المرحلة من رحمة البر الرحيم ، التي ترتبط بقبوله جل وعلا التوبة من عباده وعفوه عن السيئات . وتأمل الجار والمجرور «عنهم» في قوله تعالى: ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ لقد كان في الإمكان الاستغناء عنهما ، ولكن وجودهما يضمن جملة «كفّر» معنى جديداً . ويبدو ذلك بحذف الجار والمجرور . والقول : كفر سيئاتهم . إن معنى الجملة اللغوي يحملنا على القول : إن كفر بمعنى ستر ومحا . أما حينما يجيء الجار والمجرور، فإن لهما دوراً واضحاً في الإيحاء بكون هؤلاء المؤمنون قد حط الله تعالى عنهم إصرهم والأثقال التي كانت عليهم وها هم أولاء ينطلقون خفافاً بسبب التوبة والعمل الصالح وتحول السيئات إلى حسنات وكأنهم يطيرون في الهواء أو يحلقون في الأجواء . إنه الشعور العميق بالسعادة الغامرة لتغلّب المؤمن الحيّ الضمير على جذب الطين الشديد له إلى الأرض ، وتحليقه في الأجواء العليا بأشواقه السامية وأمانيه النبيلة . أليس هو الذي نفخ الله تعالى فيه من روحه ؟ فكيف يسمح للطين بأن تغلب سطوته نور الإيمان واليقين الذي يستمده من النفخ فيه من روح الله ؟ إن هذا الوضع لا يمكن للمؤمن أن يسمح به بحال من الأحوال .

ولا يقف جزاء الله تعالى للمؤمنين المتقين عند تكفير السيئات إنما يتجاوزه إلى إصلاح بالهم بمعنى حالهم وشأنهم . ومتى يكون هذا الإصلاح ؟ إنّه يكون في الدنيا وفي الآخرة بطبيعة الحال لأن الجزاء في الآخرة من جنس العمل في الدنيا .

وإذا كان الحديث في الآية الكريمة الأولى عن الكافرين قد شمل إضلال الله تعالى لهم ، فإنه إضلال يكون في الدنيا بطبيعة الحال . أما في الآخرة فإنه يكون في هيئة العقاب الذي هو من جنس العمل . إن الإضلال في الدنيا يكون في هيئة عمى البصيرة الذي يتحير الكافر بسببه في الدنيا وهو إضلال منه

جل وعلا مبني على ضلال القوم الذي اختاروه بمحض إرادتهم . قال تعالى[1] : ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ . ومعروف أن جزاء الضلال يكون في الآخرة ويمكن أن يكون في الدنيا كذلك .

وبما أن الإضلال نفسه يرتبط بشأن الكافرين في هذه الحياة الدنيا ، أما جزاؤه ففي الدنيا والآخرة ففي إمكاننا قياساً على ذلك أن نذهب إلى أن تكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الدنيا أساساً . أما الجزاء ففي الدنيا والآخرة معاً . وفي ضوء تفسير البال لغوياً بأنه بمعنى الفكر والقلب[2] . يمكن أن نذهب إلى أن الصلاح المرتبط به يشمل كلاً من الجانبين الديني والدنيوي . وإلى هذا النوع من صلاح القلب والفكر أشارت سورة النحل التي فسّرت الصلاح بأنه الحياة الطيبة قال تعالى[3] :

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

وبما أن الجزاء من جنس العمل . وبما أن ثواب المؤمنين المتقين الحياة الطيبة بما في ذلك الجانب الدنيوي من الحياة فمعنى هذا أن صلاح البال قادر على أن يمتد فيشمل الحياة الأخرى لأنّ الحياتين لا يمكن أن تنفصل في يقين المؤمن ، ثانيتهما عن الأولى . إن مثل هذا الانفصال ، إذا كان في يقين الكافرين وكان العقاب في الحياتين مخيباً لظنونهم وآمالهم فإنه انفصال لا مكان له في يقين المؤمنين المتقين الذين يعملون جاهدين وحريصين مستعينين بالله تعالى على أن يحسنوا السير في الأولى كي يحسن لهم الثواب في كل من الحياتين

(1) سورة الإسراء ٧٢.
(2) انظر البحر المحيط ٨ ـ ؟. .
(3) سورة النحل ٩٧.

الأولى والآخرة . يقول أبو حيان[١] «وحقيقة لفظ البال أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب» . ويقول القرطبي[٢] نقلاً عن المبرد : «قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب . يقال : ما يخطر فلان على بالي أي على قلبي»«والبال كالمصدر ولا يعرف منه فعل . ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه بالات»[٣] .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة الثالثة والأخيرة في القسم ، قال تعالى : **﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾**. تبينا أنها تتحدث عن الفريقين الاثنين نفسيهما ، ووفق ترتيب الحديث سابقاً الذي يبدأ بالكافرين لأنّ السورة الكريمة عنيفة في تعبيرها ومعانيها ، ومن أي الزوايا تتحدث الآية في السورة الكريمة ؟ من زاوية العبرة التي ينبغي أن تؤخذ بعد أن بين السياق صفات كل من الفريقين . وفي استطاعة كل انسان بعد ذلك أن يعرف وفق عمله إلى أي من الفريقين هو ينتمي . المؤمنين أم الكافرين . وكفى بنفس الإنسان عليه حسيباً .

لقد كان الإضلال من نصيب الكافرين ، وتكفير السيئات وإصلاح البال من نصيب المؤمنين لأن الأوّلين اتبعوا الباطل ولأن الآخرين اتبعوا الحق من ربهم **﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾** وذلك، يصح أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ . يقول القرطبي[٤] . وذلك في موضع رفع أي الأمر ذلك . أو ذلك الإضلال

---

(١) البحر المحيط ٨ ـ ٧٣ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٠٤٤ وانظر تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٥ .
(٣) تفسير القرطبي ٦٠٤٤ وانظر تفسير الطّبريّ ٢٦ ـ ٢٥ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٠٤٥ .

والهدي المتقدم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل والمؤمن اتبع الحق» .

وثمة مجموعة من المسائل بحاجة إلى أن نقف عندها قليلاً ، انها اتباع الكافرين للباطل واتباع المؤمنين للحق من ربهم .

وأول ما نود الوقوف عنده هو الاتباع بشأن الكافرين والمؤمنين . بما أننا بصدد اتباع من جهتين مختلفتين في الصفات . فمعنى هذا أننا بصدد نوعين من الاتباع اتباع مذموم وهو اتباع الباطل . واتباع محمود وهو اتباع الحق من الله تعالى . فما معنى اتباع الكافرين للباطل ؟ معناه أنهم عطلوا كل نعم الله تعالى عليهم التي تفضى بهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وفي مقدمة هذه النعم العقل والإرادة اللذان يعرف بهما الإنسان ويمتاز ، وانساقوا دون أي تفكير أو تدبر . ومن هنا يتبين العلاقة بين الاتباع للباطل بهذا المعنى وبين الكفر بالمعنى الذي سبق أن عرفنا،إن كلًّا منهما عبارة عن ستر لنعم الله تعالى وتعطيل لها عن العمل وإذعان كامل للشيطان الرجيم وللهوى المردي وللشهوات الهابطة ، وإذا كان الباطل يتبين معناه من مقابلته للحق في الآية الكريمة ويراد به هنا القرآن الكريم في المقام الأول فإن الباطل يراد به في المقابل الشيطان الرجيم ، الذي يزين للإنسان سبل الغواية ويمنّيه بكل الوعود المعسولة التي لا أول لها ولا آخر ويجد ذلك النوع من الناس نفسه وقد اتخذ هواه إلهه . إن الهوى المتبع لدى أولئك هو الآمر الناهي يأمر بالشر وبالباطل فيطاع وينهي عن الخير والحق فيتبع . ومن أمثلة الباطل الذي يتبع هؤلاء الكافرون كونهم يكفرون نعم الله تعالى ويسدون المنافذ في وجه كل خير يريد أن يلج إليهم فيصلهم بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى صد الآخرين عن سبيل الهداية والرشاد . في إمكاننا أن نتمثل هذا الكافر وقد أرخى للشيطان الرجيم الزمام فقاده فامتطاه فركب به كل صعب حتى انتهى به إلى مهاوي الردى ، أين العقل وأين الإرادة القادران على التمييز بين الحق والباطل ، بين الصواب والخطأ .